Journal of Al-Farabi for Humanity Sciences Volume (7), Issue (3) April (2025)

ISSN: 2957-3874 (Print)
Journal of Al-Farabi for Humanity Sciences (JFHS)
https://iasj.rdd.edu.iq/journals/journal/view/95
مجلة الفارابي للعلوم الإنسانية تصدرها كلية الفارابي الجامعة

التوحيد من خلال الطريق النفسي والآفاقي عند عبد الله الجوادي الآملي

طالب الدكتوراه: صادق كاظم مكلف جامعة بغداد كلية العلوم الإسلامية

أ.د. عبد الكريم هجيج طعمة علي جامعة بغداد كلية العلوم الإسلامية

Monotheism through the psychological and horizonal path of Abdullah Al-Jawady Al-Amili

Prof. Dr. Abdul Karim Hajij Taama Ali[1]

University of Baghdad, College of Islamic Sciences

PhD student: Sadiq Kazim Maklaf[2]

University of Baghdad, College of Islamic Sciences

Kareemalemari15@gmail.com

sadiq.kadhum2202p@cois.uobaghdad.edu.iq

مستخلص:

يُعتبر التوحيدُ الركيزةَ العظمى في الفكر الإسلامي، اذ يطرح القرآنُ الكريمُ طريقين متكاملين لبلوغ اليقين بوحدانية الله: الطريق النفسي أي: التأمل في الذات، والطريق الآفاقي أي: التدبر في الكون، يَبرُز هذان المساران في فلسفته الذي يضيف إليهما طريقًا ثالثًا جوهريًا: من المقصد إلى المقصود، أي من الإنسان المخلوق العاقل إلى الله الحق المطلق، في هذا البحث، نستعرض هذه المناهج الثلاثة عبر آراء الآملي في كتبه، اذ يُبرز تكاملَ العقل والقلب، والفطرة والبرهان، ليُرسي رؤيةً شاملةً تجمع بين عمق العرفان ودقة الاستدلال، مؤكدًا أن معرفة النفس والآفاق ليست سوى بواباتٍ لمعرفة المُوجِد الواحد.**الكلمات المفتاحية:** الله، التوحيد، الإنسان، الطريق النفسي، الطريق الآفاقي.

Abstract:

Monotheism is considered the greatest pillar in Islamic thought, as the Holy Quran presents two integrated paths to attain certainty in the oneness of Allah: the psychological path, i.e. contemplation of the self, and the horizon path, i.e. contemplation of the universe. These two paths are prominent in his philosophy, to which he adds a third essential path: from the purpose to the intended, i.e. from the rational created human being to the absolute true Allah. In this research, we review these three approaches through the views of Al-Amili in his books, as he highlights the integration of the mind and the heart, instinct and proof, to establish a comprehensive vision that combines the depth of knowledge and the accuracy of reasoning, emphasizing that knowledge of the self and the horizons are nothing but gateways to knowledge of the One Creator.

Keywords: Allalh, Monotheism, Human, Psychological Path, Horizontal Path.

المقدمة

جعل الله تعالى لنفسه بعض الصفات والأسماء ليتعرّف العباد بها عليه، وكما أنه تعالى منح العقل البشري القدرة على معرفته بصورة إجمالية، وإضافة إلى ذلك، فإنّ في ما بينه الأنبياء والأوصياء في هذا الخصوص الكفاية لمعرفة الله، وقد قدم القرآن الكريم أمام الموحدين والباحثين عن البحث التوحيدي طرقاً وأساليب مختلفة، يتميز بعضها عن بعض بالدقة واللطف، وهذه ثلاثة طرق وردت في آية واحدة، على بعض الترجيحات، ودليلاً على ذلك قوله تعالى:﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[1]وردت في الآية الكريمة آيات الآفاقية، وهي الرحلة في خلق السماء والأرض، وتعاقب النهار والليل، وكما تمت الإشارة إلى الآيات الأنفسية، وعرضت

بطريقة أخرى دقيقة وعميقة جداً في بيان معرفة الله تعالى من خلال الله نفسه[٢]، وسنتحدث عنه في أدلة التوحيد، وهذا هو الطريق الثاني، وبيان على ذلك قوله تعالى:﴿وفي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ* وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[٣]، وجاء في الطريق الثالث من المعرفة في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾[٤]، وقد اتضح أنَّ هناك اختلافاً عند المفسرين، وما ذهب إليه الآملي هو:"أنَّ تعود إلى الله"، وسنذكر تفاصيل البحث في المكان المناسب لهذه الطرق الثلاثة في باب التوحيد إلى الله تعالى[٥].

المطلب الأول: الطريق الأول الآفاقي

إنَّ الإنسان يتعرف على الله عن طريق المفاهيم الذهنية، سواء كانت هذه المفاهيم حصيلة الجهود العقلية أم كانت مما أرشد إليها الأنبياء والأوصياء، أو من خلال العديد من الآيات القرآنية التي تدعو الإنسان إلى التأمل في أسرار الطبيعة وتنظيم العالم المعقد الذي يثير الدهشة في العقول، مما تحثنا على التفكر في خلق السماوات والأرض والموجودات وغيرها، وهم بذلك يمثلون إحدى الطرق المؤدية إلى توحيد الله عز وجل، وهو السبيل الذي يجعل الشخص العقلاني عادلاً وموحداً، فيقول الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾[٦]، ويقول الله تعالى أيضاً: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[٧]، وكما يؤكد أن الله هو الذي خلق الفصول الأربعة وعلى اختلافات متتالية[٨]، وقال أيضاً بمحكم كتابه: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[٩]، وقال أيضاً:﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾[١٠]، وفي السياق القرآني نفسه قال أيضاً:﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾[١١]، وأخيراً يقول الله تعالى:﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾[١٢]، وما يميز المسار الآفاقي عن غيره من المسارات هو سهولته حيث يمكن للجميع فهمه، لأن المسار على هذا الطريق لا يحتاج إلى المزيد من التعقد أو إلى مفاهيم فنية صعبة أو إلى براهين ومصطلحات فلسفية صعبة، وحتى لو كان الإنسان بعيداً عن الرغبة والوساوس، فإنه سيحقق الإيمان والعقيدة الصحيحة بوجود الله ووحدانيته ومعرفة جميع صفاته[١٣]، وقد يتضح ذلك بقوله تعالى:﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾[١٤]، وقد اتضح عمق وتأثير هذه الطريقة السهلة وأقل من الطريقة الثانية، في هذه الطريقة يتم حل المشكلات الخارجية، ومن خلالها نتعرف على كيفية خلق السماء والأرض، وكذلك إمكانية حدوثها، وندرك أيضاً وجود الواجب والقديم، وننتقل من مادة إلى أخرى في بيان حركة العالم إلى وجود المحرك دون حركة، ومن خلال أنظمته نستنتج المنظم المتحكم بالكون أو مدبره، أما التحول والحركة الداخلية فلن تحدث بالقلب ومساره، وفي هذه الرحلة يكون المسار غير المسلوك والمقصد غير السالك هو الباحث الإنساني، والمسار هو الفكر في الكون وارتباطاته وحركته وأنظمته وخصائصه، والمقصد النوراني هو المحرك بلا حركة والمنظم والمدبر، القديم والأبدي والسرمدي[١٥]ولا بد من الإشارة في هذا السياق إلى ملاحظتين: أولاً: الدراسة المفاهيمية والتحليلات المحصلة حول الآفاق ليست واحدة، والنتائج ليست موحدة؛ لأنَّ الآفاق الملكية لا تعادل آفاق الملكوتية، وكلاهما يختلف عن الآفاق الجبروتية؛ ولذلك نجد أن نتائج هذه السلسلة من الآفاق متنوعة، فبعضها مقبول، وبعضها الآخر أكثر قبولاً، وأكثر صدى في العقل، وألطف على النفس.ثانياً: الآيات التي تتحدث عن المسار الآفاقي لها ألفاظ مختلفة، تارة يكون الحديث عن الانتقال من الوحدة إلى الكثرة، وتارة يكون الحديث عن الكثرة إلى الوحدة، وتارة يكون الحديث عن العقل، وتارة أخرى عن التفكر[١٦].

المطلب الثاني: الطريق الثاني الآنفسي

يلتزم الإنسان بتقوى الله والمجاهدة في سبيله وفق ما جاءت به الشريعة الحقة، ليصل بعد ذلك إلى نوع من الشهود الباطني والقلبي الذي يتعرف به على الله من دون توسط المفاهيم الذهنية، وغاية المقصود من المسار النفسي هو السير في علامات النفس ومعرفة الله من خلال معرفة الذات، هذا المسار أقرب إلى الوجهة وأكثر دقة من المسار الآفاقي ويجلب المزيد من السعادة للشخص الذي يسير على الطريق، وفي هذا النوع من الرحلات يصبح الإنسان بحد ذاته علامة التوحيد الإلهي، وهذا التأمل الذاتي يمهد الطريق لمعرفة الله ومعرفة الوجود، وتفكير الإنسان في نفسه وصفاته وأفعاله يجعله واعياً؛ لأنَّهُ لا يوجد كائن ممكن له استقلال الكامل؛ الأسباب والعوامل الخارجية تخلق له احتياجات، وأسباب وعوامل أخرى تكشف ذلك، وأسباب وعوامل خارجية تخلق احتياجات إضافية للإنسان، فيحتاج إلى الأكل، وشرب، وعلاج، ومن ناحية أخرى تحل العلل والعوامل الخارجية احتياجاته؛ لا يمكن للإنسان أن يكون محتاجاً، ولا يستطيع أن يضمن مبدأ وجوده ويتحمل بقاءه وحده؛ لأنها ليست مستقلة، بل تخضع لأسباب وعوامل خارجية من كل جانب، وهذه الأمور تخضع لسبب آخر، وتحكمها إرادة الإلهية تحت نظام في غاية الدقة والتنظيم من قبل الله عز وجل[١٧]لا يمكن للإنسان أن يكون محتاجاً، ولا يستطيع أن يضمن أصل وجوده ويتحمل بقاءه؛ لأنه ليس مستقلاً، بل تخضع لأسباب وعوامل خارجية من كل جانب، وهذه الأمور في حد ذاتها يحكمها سبب آخر أو علة اخرى، وتدار تحت إرادة الذات الإلهية، وتحت نظام آخر، والعامل

الآخر هو الله عز وجل، ولهذا قال المجلسي: كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك، أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك، حتى يكون هو المظهر لك، متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك، عميت عين لا تراك، ولا تزال عليها رقيبا، وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبك نصيباً[١٨]وفي هذا التقرير نتحدث عن الفكر والعلم الذي يمكن تحقيقه، أي المراد منه العلم الحصولي؛ أي إذا فكر الإنسان في نفسه وأحس باحتياجاته، سيرى أن الذي يتكئ عليه موجود ولا يفتقر إلى غيره، بل أن احتياجاته يرفعها موجد غني؛ فإذا ادعى أنه محتاج إلى غير الله، فقد وقع في فخ الوهم الباطل، ويقول الإمام السجاد: "رأيت أن العارف بالله تعالى هو العاقل الواعي الذي يطلب حاجته من الغني بالذات، لا أنه طلب المحتاج إلى المحتاج سفة من رأيه وضلة من عقله"[١٩]، أو يطلبه من آخر، وإذا تأمل الإنسان في وجوده يقينا يصل إلى الله؛ من هنا قال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم):"من عرف نفسه فقد عرف ربه"[٢٠]وفي هذا النوع من السير يُفترض أن الظاهر هو وحدة السالك والطريق؛ لأن السائر يفكر في نفسه، لكن الأمر في الداخل ليس كذلك؛ لأنه وعلى الرغم من أن الإنسان يتدبّر في نفسه من خلال مفاهيم الحصولية، لكنه في الواقع معني بالسير الآفاقية، وليس بالسير الأنفسي؛ لأن المفاهيم غريبة عن هوية النفس الذاتية والعينية، رغم أنها تحاكيها وتنطبق عليها؛ لأن المفهوم الكلي ونفس السالك هوية شخصية، والمفهوم هو الوجود العقلي وهويته وجود عيني، ومفهوم النفس "أنا" هو "أنا"، حسب الأولي الحمل النفسي، لكنه ليس "أنا" حسب الحمل الاصطناعي الشائع للنفس، وإنَّ المفهوم غائب، لكن هوية السالك حاضرة وواضحة، وهناك عدد من عناصر التباين والاختلاف بينهما، تعود جميعها إلى جذور الفرق بين المفهوم والمصداقية[٢١]، وعليه فإن دراسة المفاهيم الحصولية والعقلانية غير الهوية الإنسانية، وهي أشبه بالآيات الآفاقية، والتأمل فيها هو كتعدد السالك والمسير ليس من وحدتهما، ومما تجدر الإشارة إليه أن المقصود بالطريق الأنفسي ليس فحص الجسد وتحليل أعضائه وأجزائه، أي إذا فحص الإنسان أجزاء جسده كله، وتأمل مظهر أعضائه وباطنه وجوارحه، واستطاع أن يدرس كل ذلك من خلال العمق العقلي أو من خلال الدراسة التجريبية والحسية، وقادر على التعرف على أنظمته وتنظيمه، ويُحكم عليه أو يُستنتج على هذا الأساس أنه موحد؛ وهذه الرؤية والاعتقاد لن تعد جزءاً من طريق الأنفس، بل هي لا تزال تتحرك في إطار طريق الآفاقي، وإن كانت قريبة أو قاب قوسين أو أدنى من السير الأنفسي[٢٢]أمَّا طريق معرفة الله تعالى من خلال السير بالطريق الأنفسي فتقرير آخر، وهذا يعتمد على العلم الحضوري، والعلم الحضوري لا يأتي إلا بعد تهذيب النفس، وهذا طريق صعب جداً، ليس سهلاً على أحد، ولكن يمكن أن يحصل عليه من خلال اليقين، ومن هو أعلى منزلة من أصحاب العقول؛ إذ قال تعالى:﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[٢٣]؛ إلا أن نتائج هذا النوع من السفر أكثر من مجرد اختلافات بين السائر، وبين الدرب والطريق، إلا الاختلاف المفهومية، ولا يختلف المقصد يغايرهما فقط[٢٤]وإذا سافر المرء في ذاتهُ متسائلاً: من أنا؟ ومن أين جئت؟ ومن وما الذي يؤثر بي؟ ومن هو الذي يديرني أو يدبر أموري؟ فمن المسلم أن هذا المرء لن يغفل عن الحق حقا، وأنَّ السير الشهودي الذي يجمع فيه السير والسلوك معاً، ولا يكون هناك أي معنى، والمعنى أن الإنسان إذا تأمل نفسه، وسار في الآيات الأنفسية بعلم ووعي، ويرافقه اللطف الإلهي ومدده؛ لأنه حتى لو كان سيره في الخليقة، فسينتهي به الأمر إلى الشهود الحق، وسيرافقه اللطف الإلهي الخاص، وهذا السير من أهل اليقين، ولكنه ممن يفكر في العالم الخارجي ويسعى إلى أن يصبح عالماً لكنه لا يتأمل في وجود نفسه، فتكون ذاته فارغه من التدبر التوحيدي، فإذا سعى إلى ملء ذاته بالمعرفة وحوّلها إلى نبع من النور المضيء فقد آتت جهوده أكلها[٢٥]أمَّا النفس الإنسانية لها مستويات ومراتب، والعلم الشهودي في المستوى الذي هو في مستواه الوجودي، ويقوم على ذلك الأساس، وبناءً على ما جاء السير الجوهري يمكن تغيير مستوى النزول إلى المرحلة الكاملة، وهذا أمر سهل وسيخرج نتائج الشهودية من تلك المرحلة الشاهدة، وهي عين الشهودية، وأما سر قدرة النفس على التحول هو أنها وإن كانت مجردة من جهة، إلا أنها تعتمد على الطبيعة من جهة أخرى، وبالتالي فهي لا تدخل في ذلك الأصل الكلي الخاص بالملائكة، وهو: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾[٢٦]، فالنفس لها مراحل ثابتة، منها الإلهام، والدعاء، واللوامة، والطمأنينة، ولها شؤون أخرى مستقلة ولها تأثير كبير في تحديد هوية الشخص، ومنها الأمانات الإلهية المودعة في النفس البشرية، وعلى كل إنسان أن يحميها ويحافظ عليها، وتفسير هذا المطلب يرجع إلى مكانه موضعه الخاص في التوحيد[٢٧].

المطلب الثالث: الطريق الثالث من المقصد إلى المقصود

هذا السير يصل الإنسان السالك بالتأمل في حقيقة الوجود وفي كل مصدر ومكان إلى مكان خاص، حيث يجد الله قبل كل شيء آخر، أي أن يكون المسلك والمقصد واحداً، حتى لو كان هناك فرق بينهما مثبتٌ.إنَّ التأمل في حقيقة الوجود هو الطريق الأكمل لتحقيق الوجود المحض، إنَّ اجتياز هذا الصراط المستقيم يحقق أفضل النتائج، ومعرفة الله بالله، والسير في حقيقة الوجود أمر مختلف، ولا يمكن في السير لغير الله تعالى، وكذلك من يعرف الله لا يريد غير الله؛ أي كما أن الدراسة والبحث عن غير الله طريق ناقص ولا يؤدي إلى الهدف المقصود، كذلك لا يكون غيره

هو الهدف المقصود.فالتكامل والسعادة الإنسانية يتحققان من خلال التأمل في الوجود المحض، وسيأتي التفسير الأكمل في مكانه المناسب، مصحوباً بالأدلة القرآنية، ودليلاً على ذلك قوله تعالى: ﴿نُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[٢٨]، لأن الله تعالى هو المشهود المحض، وهو المعروف والمعلوم قبل كل شيء، فهذا يحقق غرض المعرفة، ولا يحتاج إلى أي إشارة أو مرجع، سواء كانت العلامة الآيات الخارجية والآيات الآفاقية، أم كانت الآيات داخلية والآيات أنفسية، ومن خلال التأمل في النباتات والأعشاب نستدل على وجود الماء، لا نحتاج في معرفة الله سبحانه إلى التأمل في الآيات الأنفسية والآيات الآفاقية[٢٩]؛ كقوله تعالى:﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾[٣٠]، بل يمكن القول للسالك: إن أردت الاهتداء إلى الله يمكن ذلك عبر المشاهدة الحقيقية إلى الذي هو مشهود قبل كل شيء ومعروف قبل كل معلوم؛ ﴿أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[٣١]؛ وهو معترف به في كل مكان وللجميع، فهو مشهود به فوق كل شيء، وهذا يعني أنك إذا أردت أن ترى أي شيء، فانظر أولاً إلى الله، ثم انظر إلى ذلك الشيء؛ لأن الله حق غير محدود، فهو حاضر في كل مكان، ولا مكان بدونه، ولذلك فهو فوق كل شيء مشهود، وقبل كل شيء معروف[٣٢]اذ قال المجلسي: كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك، أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك، حتى يكون هو المظهر لك، متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك، عميت عين لا تراك، ولا تزال عليها رقيبا، وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبك نصيباً[٣٣]ذكر الصدوق قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾[٣٤]، يعني بذلك أو لم يتفكروا في ملكوت السماوات والأرض وفي عجائب صنعها ولم ينظروا في ذلك نظر مستدل معتبر فيعرفوا بما يرون ما أقامه الله عز وجل من السماوات والأرض مع عظم أجسامها وثقلها على غير عمد، وتسكينه إياها بغير آلة فيستدلوا بذلك على خالقها ومالكها ومقيمها أنه لا يشبه الأجسام ولا ما يتخذه الكافرون إلها من دون الله عز وجل إذ كانت الأجسام لا تقدر على إقامة الصغير من الأجسام في الهواء بغير عمد وبغير آلة فيعرفوا بذلك خالق السماوات والأرض وسائر الأجسام ويعرفوا أنه لا يشبهها ولا تشبهه في قدرة الله وملكه، وأما ملكوت السماوات والأرض فهو ملك الله لها واقتداره عليها، وأراد بذلك ألم ينظروا ويتفكروا في السماوات والأرض في خلق الله عز وجل إياهما على ما يشاهدونهما عليه فيعلمون أن الله عز وجل هو مالكها والمقتدر عليها لأنهما مملوكتان مخلوقتان وهي في قدرته وسلطانه وملكه، فجعل نظرهم في السماوات والأرض وفي خلق الله لها نظر في ملكوتها وفي ملك الله لها لان الله عز وجل لا يخلق إلا ما يملكه ويقدر عليه، وعنى بقوله: وما خلق الله من شيء يعني من أصناف خلقه فيستدلوا به على أن الله خالقها وأنه أولى بالإلهية من الأجسام المحدثة المخلوقة[٣٥]فقال يا أمير المؤمنين هل رأيت ربك؟ قال: ويلك يا ذعلب لم أكن بالذي أعبد ربا لم أره، قال: فكيف رأيته؟ صفه لنا؟ قال: ويلك لم تره العيون بمشاهدة الأبصار، ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان، ويلك يا ذعلب إن ربي لا يوصف بالبعد، ولا بالحركة، ولا بالسكون، ولا بالقيام قيام انتصاب، ولا بجيئه ولا بذهاب، لطيف اللطافة لا يوصف باللطف، عظيم العظمة لا يوصف بالعظم، كبير الكبرياء لا يوصف بالكبر، جليل الجلالة لا يوصف بالغلظ، رؤوف الرحمة لا يوصف بالرقة مؤمن لا بعبادة، مدرك لا بمجسة، قائل لا باللفظ، هو في الأشياء على غير ممازجة، فيقول: "هو في الأشياء على غير ممازجة، خارج منها على غير مباينة"، وعلى هذا الأساس يرى الإمام أمير المؤمنين أن الله مع كل شيء، ولكن بلا التمازج والاتحاد، ودون أن يحلّ فيه، وأنه غير كل شيء وهو خارج عنه، دون أن يختلف عنه ولا ينقطع عنه، والمراد منه: "خارج منها على غير مباينة"، بمعنى: فوق كل شيء فلا يقال: شيء فوقه، وأمام كل شيء فلا يقال: له أمام، داخل في الأشياء لا كشيء في شيء داخل، وخارج منها لا كشيء من شيء خارج، فخر ذعلب مغشيا عليه، ثم قال: تالله ما سمعت بمثل هذا الجواب، والله لا عدت إلى مثلها، ولذا فإن أي شيء نعرفه، فإننا نعرف الله أولاً ثم هذا الشيء؛ ولأن الله فوق كل شيء ومرئي، وبالنظر والتأمل في الوجود المحض يهتدي إليه سبحانه، وهذا الطريق يكفي للوصول إلى التوحيد، ولهذا قال الإمام علي(عليه السلام):"الحمد لله المتجلّي لخلقه بخلقه"[٣٦]ويعتقد علماء التوحيد أن التأمل في الوجود المطلق هو السبيل الوحيد لمعرفة الله، وبعد معرفة الله من خلال شهود الحقيقة اللانهائية وغير المحدودة، لا يلتفت إلى أي شيء آخر؛ أي أن فكره أصبح إلهياً في حدوثه ووجوده، ولكن السير على هذا الطريق سهل لمن يرى الحق بعين البصيرة، ولذلك فإن هذا هو الطريق الوحيد للإنسان الكامل، وليس للناس العاديين، لأن هذه البصيرة ليست متاحة بسهولة لأي باحث، بل هي في متناول يد الإنسان، والبشرية الأكثر تميزاً الذي تسعى إلى الوصول لله تعالى من طرقٍ أخرى مختلفة[٣٧].مما تقدم يتبين: أنَّ طريق التوحيد الآفاقي والنفسي والمقصد إلى المقصود، ويمكن عرضه على الشكل الآتي:والطريق الآفاقي: هو الذي يسلك الكثير من الآيات القرآنية تدعو الناس إلى التأمل في أسرار الطبيعة وتنظيم العالم المعقد الذي يذهل العقول، ويحث على التأمل في خلق السماوات والأرض والموجودات وغيرها، فهم بذلك يمثلون أحد الطرق المؤدية إلى توحيد الله تعالى، وهو الطريق الذي يجعل الإنسان العاقل عادلاً وموحداً.أما الطريق النفسي: هو هدف المسار النفسي في علامات النفس، ومعرفة الله من خلال معرفة الذات، وهذا المسار أقرب إلى الوجهة وأكثر دقة من المسار الأفاقي، ويجلب المزيد من السعادة للإنسان، ويصبح في نفسه إشارة للتوحيد الإلهي،

وهذا التأمل الذاتي يمهد الطريق لمعرفة الله ومعرفة الوجود، وتفكير الإنسان في نفسه وصفاته وأفعاله يجعله واعياًوالسير من وجهة إلى أخرى يختلف باختلاف المقصود، وفي السير إلى المقصد يدرك حقيقة الوجود، وأن الطريق الأكمل للوصول إلى الوجود وهو الطريق الأكمل لتحقيق الوجود المحض، ولا يمكن في السير لغير الله تعالى، وكذلك من يعرف الله لا يريد إلا الله، أي أن الدراسة والبحث عن غير الله طريق ناقص، ولا يؤدي إلى الهدف، فلا هدف مقصود سواه، وأن يجعل القرآن في قلوبكم نوراً تفرقون به بين الحق والباطل، وبهذا النور يهتدي المرحلة الذهنية لمعرفة الله عبارة عن معرفة الله بالعقل عن طريق خلقه، ولكن إذا بلغ الإنسان في معرفته الله إلى المرحلة القلبية فإنه سيستغني عن المعرفة الذهنية، وتكون المعرفة القلبية هي الأساس في معرفته الله تعالى، ولهذا قال الإمام الحسين مشيراً إلى هذه المرحلة الرفيعة من معرفة الله تعالى: "كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك"[٣٨].

الخاتمة

مما تقدم تبين: أنَّ الآملي يربط بين الطريق النفسي الذاتي والآفاقي الكوني كمسارين متكاملين للإيمان؛ فالتأمل في النفس يكشف فطرة التوحيد ووجود الخالق عبر العرفان وتزكية الروح، بينما تدبر الآفاق يُظهر وحدانية الله عبر نظام الكون ودقته، يدمج الآملي بين العقل والنقل، مستندًا إلى براهين قرآنية وعقلية لتأكيد أن معرفة الذات والكون بوابةٌ لمعرفة الله الواحد.

قائمة المراجع والمصادر

القرآن الكريم

- ابن الفناري، محمد بن حمزة، مصباح الأنس بين المعقول والمشهود، تصحيح: محمد خواجوي، ط١، انتشارات مولى، طهران، إيران.
- ابن عاشور، محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ط١، دار سحنون، تونس.
- أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
- الأصفهاني، محمد باقر نجل السيد المرتضى الموحد الأبطحي، الصحيفة الجامعة لأدعية الإمام السجاد زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام، تحقيق ونشر: مؤسسة الإمام المهدي عليه السلام، ط١، مؤسسة الأنصاريان للطباعة، قم، ١٤١١هـ. ق.
- الآملي، عبدالله الجوادي، التوحيد في القرآن، ترجمة: محمد حسين خليق، ط١، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، النجف، العراق، ١٤٤٥، ٢٠٢٣م.
- التفتازاني، سعد الدين مسعود بن عمر بن عبد الله، شرح المقاصد في علم الكلام، دار المعارف النعمانية، ١٤٠١هـ -١٩٨١م.
- الحسون، علاء، التوحيد عند مذهب أهل البيت(ع)، ط١، دار مشعر، ١٤٣٣هـ.
- الرازي، فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر بن حسين، التفسير الكبير، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٢٠٠٤م – ١٤٢٥هـ.
- الريشهري، محمد، ميزان الحكمة، التنقيح الثاني دار الحديث الناشر، ط١، دار الحديث المطبعة.
- الشريف الرضي، نهج البلاغة، شرح الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية، ط٣، دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت،
- الشريف الرضي، نهج البلاغة، ط١، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.
- الطباطبائى، محمد حسين، الميزان فى تفسير القرآن، بيروت، ١٣٩٤هـ.
- الطباطبائي، محمد حسين، نهاية الحكمة، صححه وعلق عليه عباس علي الزارعي السبزواري، ط١، مؤسسة النشر الإسلامي، قم.
- الطبري، محمد بن جرير الطبري، تفسير الطبري، ط١، دار المعارف، القاهرة، مصر.
- المازندراني، محمد صالح، شرح أصول الكافي، تعليق: الميرزا أبو الحسن الشعراني، ضبط وتصحيح السيد علي عاشور، ط١، دار احياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

هوامش البحث

١ – سورة فصلت: الآية ٣٥.

٢ – ينظر: القرطبي، تفسير القرطبي، ج١٥، ص٣٣٤.

٣ – سورة الذاريات: الآية ٢٠–٢١.

٤ – سورة لقمان: الآية ٣٠.

٥ – ينظر: الطبري، تفسير الطبري، ج١٨، ص٦٧٦؛ والحسون، علاء، التوحيد عند مذهب أهل البيت(ع)، ط١، دار مشعر، ١٤٣٣هـ، ص٤٢.

٦ – سورة هود: الآية ٧.

٧ – سورة يس: الآية ٤٠.

٨ – ينظر: القرطبي، تفسير القرطبي، ج١٥، ص٣٢؛ والرازي، تفسير الرازي، ج٢٦، ص٧٣.

٩ – سورة غافر: الآية ٦٧.

١٠ – سورة طه: الآية ٥٠.

١١ – سورة السجدة: الآية ٧.

١٢ – سورة الأعلى: الآية ٢–٣.

١٣ – ينظر: القرطبي، تفسير القرطبي، ج٢٠، ص١٦.

١٤ – سورة آل عمران: الآية ١٩٠.

١٥ – ينظر: الآملي، التوحيد في القرآن، ص٤٥–٤٧؛ والحسون، التوحيد، ص٤٢.

١٦ ـ التفتازاني، سعد الدين مسعود بن عمر بن عبد الله، شرح المقاصد في علم الكلام، دار المعارف النعمانية، ١٤٠١هـ ـ١٩٨١م، ص١٣٦؛ والآملي، التوحيد في القرآن، ص٤٧.

١٧ – ينظر: الآملي، التوحيد في القرآن، ص٤٧؛ والحسون، التوحيد، ص٤٣–٤٤.

١٨ – ينظر: المجلسي، بحار الأنوار، ج٦٤، ص١٤٢.

١٩ ـ ينظر: الأصفهاني، محمد باقر نجل السيد المرتضى الموحد الأبطحي، الصحيفة الجامعة لأدعية الإمام السجاد زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام، تحقيق ونشر: مؤسسة الإمام المهدي عليه السلام، ط١، ، قم، ١٤١١هـ. ق، ص١٤٤.

٢٠ ـ ينظر: الريشهري، محمد، ميزان الحكمة، التنقيح الثاني دار الحديث الناشر، ط١، دار الحديث المطبعة، ج٣، ص١٨٧٧.

٢١ – ينظر: ابن الفناري، محمد بن حمزة، مصباح الأنس بين المعقول والمشهود، تصحيح: محمد خواجوي، ط١، انتشارات مولى،ص١٨٣.

٢٢ – ينظر: الآملي، التوحيد في القرآن، ص٤٧–٤٩.

٢٣ – سورة الجاثية: الآية ٤.

٢٤ – ينظر: الرازي، تفسير الرازي، ج٢٧، ص٢٥٨؛ والقرطبي، تفسير القرطبي، ج١٦، ص١٤٨؛ والمازندراني، ج٣، ص٩٢.

٢٥ – ينظر: الآملي، التوحيد في القرآن، ص٤٩.

٢٦ – سورة الصافات: الآية ١٦٤.

٢٧– ينظر: الآملي، التوحيد في القرآن، ص٥٠.

٢٨ – سورة فصلت: الآية ٥٣.

٢٩ – ينظر: القرطبي، تفسير القرطبي، ج١٥، ص١٢٢.

٣٠ – سورة فصلت: الآية ٥٣.

٣١ – سورة فصلت: الآية ٥٣.

٣٢ – ينظر: الرازي، تفسير الرازي، ج٢٥، ص٢٢٧؛ وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢٦، ص٢١.

٣٣ – ينظر: المجلسي، بحار الأنوار، ج٦٤، ص١٤٢؛ والآملي، التوحيد في القرآن، ص٥٠–٥١.

٣٤ – سورة الأعراف: الآية ١٨٥.

٣٥ – ينظر: الطبري، تفسير الطبري، ج١٣، ص٢٩١؛ وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٧، ص٣١٦؛ والمجلسي، بحار الأنوار، ج٣، ص٩.

٣٦ – ينظر: الصدوق، التوحيد، ص٣٠٥–٣٠٦؛ والمجلسي، بحار الأنوار، ج٤، ص٢٧؛ والشريف الرضي، نهج البلاغة، ط١، دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت لبنان، ج١، ص٢٠٦؛ وأبي الحديد، شرح نهج البلاغة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، ج٧، ص١٨١.

٣٧ – ينظر: الآملي، التوحيد في القرآن، ص٥١–٥٢.

٣٨ – ينظر: المجلسي، بحار الأنوار، ج٦٤، ص١٤٢.